كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم علم الاجتماع

محاضرات في مقياس التربية والتكوين في الجزائر د . تالي جمال

عنوان الماستر: علم اجتماع التربية اسم الوحدة: أساسية الرصيد: 5 المعامل: 2

المحاضرة الأولى: المجتمع الامازيغي قبل الإسلام:

يمكن اعتبار تاريخ شمال إفريقيا والصحراء تاريخ فتوحات واحتلالات أجنبية تحملها الأمازيغ بصبر كبير، ولذلك انحصر دورهم التاريخي في المقاومةوكان الإبقاء على مقوّمات المجتمع الامازيغي والحفاظ على هويته باستمرار اللغة والعادات والتنظيم الاجتماعي والأعراف والتقاليد، من أهم مظاهر نجاح تلك المقاومة. [i]

إن تكون الشعب الامازيغي يظل قضية شائكة، لان الموضوع طرح متأثرا بتوجهات إيديولوجية مختلفة، وذهب الباحثون إلى احتمالات عدة؛ فمنهم من يردهم إلى الفرس إلى بلاد كنعان، أو إلى بحر ايجة أو إلى الهند وبلاد العرب الجنوبية (اليمن)، وحتى إلى أوربا شمالا وشبه الجزيرة الأيبيرية وجزر المتوسط. لكن ماذا لو أن الأمازيغ لم يأتوا من أي بلد؟ أو الأحرى هو البحث على الأقل في الخلط الذي وقع في معطيات الدلالات المختلفة والمتناقضة؟ [ii]

لا شك أن البربر أمة من أقدم الأمم في العالم وأشهرها، عاصرت العرب والفرس واليونان والروم، معروفة برباطة الجأش والشجاعة والدفاع عن الشرف، وعاشت أغلب فترات تاريخها في حروب لا تكاد تخمد حتى

تشتعل، ولم يمنعها ذلك من مجاراة الأمم الأخرى في الحضارة والرقي والصناعات والفنون والعلوم.

وبالعودة إلى الحديث عم أصل البربر نجده من أكثر الأحاديث اضطرابا وأوسعها اختلافا بين المؤرخين في القديم والحديث، وحتى مع البحث المضني لم يحصلوا الا على روايات متضاربة وآراء متناقضة. ويمكن أن نذكر في منهج بحثهم طريقتين؛ طريق المتقدمين من مؤرخي اليونان والرومان والعرب تعتمد على الرواية والنقل، وطريق المتأخرين من مؤرخي الافرنج تعتمد على الدراية والنظر إلى اللغة والخلقة والصناعة.[iii]

كان بشمال افريقية ثلاث ديانات: الوثنية والموسوية والمسيحية، غير أن دخول الإسلام إلى شمال افريقية جعلهم يدخلون الإسلام على مراحل، ففي ولاية عقبة بن نافع الأولى التي وضع فيها أساس الفتح الإسلامي كان الإسلام منتشر ا، قال ابن خلدون:(فدخل افريقية وانضاف إليه مسلمة البربر فكبر جمعه، ودخل أكثر البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، ورسخ الدين. وفي ولاية أب المهاجر دينار اسلم كسيلة من ملوك البربر، وكاد الإسلام يعم المغرب اجمع في ولاية عقبة الثانية لولا إساءته لكسيلة، تلك الإساءة التي أنتجت قتله ووقف الفتح الإسلامي.[iv]

وا إذا كان من البربر من قبل الإسلام عن إيمان وعلم واعتقاد راسخ فان جمهورهم إنما قبلوه لما رأوه من قوة الجند العربي، وأنه لا يسلم من سيوفهم الا من اسلم أو دفع الجزية، فاختاروا الإسلام لما فيه من عز ، وانفوا

الجزية لما فيها من صغار، ولذلك كانوا إذا جاءتهم جنود العرب أسلموا وإذا ذهبوا ارتدوا، ويروي ابن أبي زيدانة أن البربر ارتدوا اثني عشر مرة.

ولما فتحت الأندلس وثبتت قدم الإمارة الإسلامية بالمغرب وخالط البربر العرب ثبتوا على الدين، ثم أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبيد الله واليا على المغرب أرسل معه عشرة من التابعين يعلمون البربر الدين واللغة العربية، فعم الإسلام البربر.[v]

إن ما يستغربه كثير من المؤرخين كيف اعتنق البربر الإسلام في ظرف قصير؟ وهم معروفون بشدة تمسكهم بهويتهم ومعتقداتهم؟ كيف لهم اعتناق دين جديد وهم لا يخشون الحرب؟ كيف ثبتوا على الإسلام وهم معروفون قبل ذاك بالانتقال من ديانة سماوية إلى أخرى؟ ويستدل هنا مبارك الميلي بقول أحد المؤرخين:(كان البربر يثورون على العرب إما أنفة من دفع الخراج وإما طمعا في الاستقلال، وغرضهم إخراج العرب من وطنهم، وقد استطاعوا أن يؤسسوا دويلات من طرابلس إلى الأندلس، ومع ذلك لم يفكروا يوما في رفض لغة العرب وديانتهم، والرجوع إلى اللغة اللطينية ــالرومانيةــ والدين المسيحي، فبقي مؤلفوهم في الفقه والتوحيد والتاريخ يكتبون باللغة العربية، وملوكهم شادوا قصورهم على الفن العربي، وصارت بعض القبائل البربرية تلفق انسابا تتصل بها من العرب.[vi]

يجب أن نقر أنّ الفتح العربي الإسلامي لم يكن محاولة استعمارية؛ أي لم يكن استيطانا بل كان في شكل سلسلة عمليات عسكرية لا غير،

وفيها اختلط الميل إلى الحصول على الغنائم مع روح تبشيرية دعوية، كما انها لم تكن نتيجة بطولات مسحت كل من يعترضها بحد السيف كما تصورها بعض الكتب.

كما ينبغي أن نميّز بين نشر الإسلام وفرض العروبة، والواقع أن الأول كان على وتيرة أسرع من الثاني، فقد أصبحت بلاد البربر مسلمة في أقل من قرنين (السابع والثامن) في حين أنها لم تستعرب نهائيا إلى اليوم على امتداد أربعة عشر قرنا، بعد القرن الذي شهد حملات الفتح الإسلامي.

لقد كان نشر الإسلام هو التعريب الأول وكان ذلك في المدن، فقد تمركز دين الفاتحين في المدن القديمة التي أخضعها المحاربون الموفدون، ثم بعد ذلك الفقهاء الزائرون الذين تصدوا لبث وشرح تعاليم الدين الجديد، وكان الدعاة سعيا منهم للوصول إلى قلوب السكان في الأرياف والمدن، يحرصون على الدوام على أن يجعلوا من الأمازيغ الذين كان تدينهم عميقا حماة للإسلام، وكانت الأربطة مثالا لذلك، فهي أماكن عبادة وثكنات عسكرية في نفس الوقت، وقاعدة تنطلق منها الحرب وحماية ثغور المسلمين ضد الكفار.[vii]

ما يمكن أن نلاحظه أن التعريب في بلاد البربر أخذ مناحي عديدة، فقد كانت الأرضية مهيّأة له بوجوب نطق العديد من المفردات باللغة العربية لإعلان الانضمام إلى الإسلام، وكان التعريب في البداية لغويا وثقافيا وفي الأساس حضاريا أي داخل المدن، فقد احتفظت مدن مغاربية

قديمة تأسست في العهد الإسلامي بلغة كلاسيكية كتذكار لذلك التعريب الأول؛ نذكر منها تونس وتلمسان وفاس.....تلك العربية الحضرية ذات التأثر ببناء الجملة الامازيغية.

ولعل ابرز حدث يجب أن نذكره هو الزحف الهلالي على شمال إفريقيا؛ وهم من بارزا، ورغم الطابع الأسطوري لهذه الحركة في "تغريبة بني هلال"الا أن ابن خلدون قدّم لنا معلومات مفصلة، وهو الذي عاش ثلاث قرون بعد وصول أعراب بني هلال إلى الشمال الإفريقي، وهي فترة طويلة عرفت تحولات ثقافية عميقة، ولا ينبغي أن نتصور أن الزحف الهلالي كان جيشا منظما، بل دخلوا شمال إفريقيا وتمركزوا في المناطق الخالية من السكان ليستجمعوا قواهم لنهب المدن تباعا، وبعد النهب يتفرقون بعيدا حاملين معهم الغنائم التي نهبوها، وأصبح هؤولاء يحترفون النهب والسطو وقطع الطرقات، ولذلك لم يتوانى ملوك الأمازيغ زيريون وحماديون وموحدون ومرينيون من استغلال تلك الروح القتالية، واستعمالهم ضد بعضهم، وبالتدريج اخذوا يتوزعون في الأرياف.[viii]

ما نشير إليه في هذا الصدد أن قدوم الأعراب إلى شمال إفريقيا كان حدثا بارزا ومؤثرا، خاصة إذا ما نظرنا إلى التراجع للحياة الحضرية من خلال النهب والتخريب والرعب الذي زرعوه في الأرياف الواسعة، كما ان التماثل في نمط الحياة البدوية بين الهلاليين والأمازيغ، التي تعتمد على الرعي والزراعة والغزو سهّلت الاندماج وجعلت رحّل الأمازيغ يعلنون بأنهم

عرب، لكسب اعتبار ومكانة الفاتح، وحتى مقام "الشريف"، كما أن الاندماج تيسر قانونا فعندما تعلن قبيلة أمازيغية الولاء لصحابي يكون لها حق الانتساب إليه كشكل من أشكال التبني الجماعي، وهذا تقليد وجد عند الأمازيغ أنفسهم.[ix]

يجب أن لا نعتقد أن الزحف الهلالي وحده عر ّب الأرياف الامازيغية، لقد بدأ الاستعراب من الحواضر منذ بدايات الفتح الإسلامي، واعتمدته الإدارة في كل الدول البربرية الإسلامية، لذلك لم نرى اصطداما بين إعراب الزحف والأمازيغ.